

القضايا النقدية في كتاب (في الشعر الجاهلي) لطه حسين

Critical topics in the book (In Pre-Islamic Poetry) by Taha Hussein

د. بويش نورية

جامعة غليزان (الجزائر)

nouria.bouiche@univ-relizane.dz

د. بويش منصور*

جامعة مستغانم (الجزائر)

mansour.bouich@univ-mosta.dz

تاريخ النشر: 2025/06/01

تاريخ القبول: 2025/05/16

تاريخ الاستلام: 2025/03/19

ملخص:

أحدث كتاب طه حسين (في الشعر الجاهلي) تحولاً نقدياً وفكرياً مهماً، وذلك لما ضمّه من طروحات تشكيكية في فترة مهمة من تاريخ الأدب العربي والتاريخ الإسلامي. فقد استدعى ما جاء به حركة تأليف نقدي من لُذُن النقاد والعلماء ردّاً على ما طرحه، مقوّضين آراءه وأفكاره خاصة تلك المتعلقة بالقرآن، فأعاد مراجعة الكتاب وطبعه مجدداً تحت عنوان (في الأدب الجاهلي)، ليظهر على أنه كتاب نقدي تأسيسي مركزاً على المشهد الثقافي في مصر وتعالق الأدب بالتاريخ وحرية الكتابة والإبداع. حيث حاولنا في هذه القراءة مناقشة أهم تلك القضايا من منظور نقدي وفكري. مستقصين منهج طه حسين في طرحها

الكلمات المفتاحية: النقد، الشعر، الانتحال، الفكر، الشك، الحداثة.

Abstract:

Taha Hussein's book (On Pre-Islamic Poetry) created an important critical and intellectual shift, due to the skeptical hypotheses it contained in an important period in the history of Arabic literature and Islamic history. This called for a critical writing movement by critics and scholars in response to what he wrote, criticizing his opinions and ideas, especially those related to the Qur'an. The book was reviewed and reprinted under the title (On Pre-Islamic Literature), to appear as a foundational critical book focusing on the cultural scene in Egypt and the relationship between literature and history and the freedom of writing and creativity. In this reading, we have tried to discuss the most important of these issues from a critical and intellectual perspective, following Taha Hussein's approach in presenting them.

Keywords: Criticism, poetry, plagiarism, thought, doubt, modernity.

1. تلخيص محتوى الكتاب الأول

كتب طه حسين سنة 1926 كتاباً تحت عنوان (في الشعر الجاهلي)، عمل فيه بمبدأ ديكرات (الشك)، وأثار به ضجة أدبية في أوساط المثقفين على عصره. وبخاصة حين مال إلى أنّ الشعر الجاهلي منحول، وأنه كُتِبَ بعد الإسلام ونُسب لشعراء جاهليين وهميين، ولم يكتفِ بذلك، بل نال من الإسلام والقرآن في هذا الكتاب. فتصدّى له العلماء والأدباء، وردوا عليه في ما اعتقدوه مزاعم وأباطيل، ولا سيما مصطفى صادق الرافعي الذي ألف كتاباً في الرد على طه حسين بعنوان (تحت راية القرآن).

كما ردّ عليه السيد قطب فألف كتاباً تحت عنوان (نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر لطله حسين). وردّ عليه أنور الجندي فألف كتاباً عنوانه (محاكمة فكر طه حسين). وردّ عليه محمود مهدي الاستنبولي فألف كتاباً بعنوان (طه حسين في ميزان العلماء والأدباء).

وذلك أمر يوحي بأنّ كتاب (في الشعر الجاهلي) كان سبباً في نهضة نقدية وفكرية وثقافية في مصر بعد 1926، وبخاصة وأنّ الشعر الجاهلي هذا تضمّن أفكاراً جديدة لم يكن للمصريين بها دراية ولا سابق معرفة من ذلك مثلاً:

دعوته إلى نهضة أدبية ميسرة جديدة وحديثة منتقدا الطرق الأدبية التقليدية المتبعة، منبها إلى ضعف المستوى التعليمي وتدنيّه في المدارس الحكومية فقد جاء في (الشعر الجاهلي) أنّ هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديد، لم يألّفه الناس عندنا من قبل وأكد أثق بأن فريقاً منهم سيلقونه ساخطين عليه... إلى أن يقول: وأنا مطمئنّ إلى أن هذا البحث وإن أسخط قوماً، وشق على آخرين فسيرضي هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم في حقيقة الأمر عُدّة المستقبل، وقوام النهضة الحديثة وزخر الأدب الجديد.

لقد كان كتاب طه حسين (في الشعر الجاهلي) سبباً في ثورة العلماء والأدباء على طه حسين الذي أخذوا عليه قوله: بانعدام دليل على وجود النبيين إبراهيم وإسماعيل¹، فضلاً عن زيارتهما الحجاز ورفعهما الكعبة. سالكا منهج ديكرات في التشكيك حين قال: للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما، ولكن هذا لا يكفي لصحة وجودهما التاريخي.

لقد كان مثل هذا النص سبباً في إثارة فكر معاصريه الذين انبرى كثير منهم وشحذ قلمه وفتح مطوياته، ونفض الغبار عن أوراقه، ليصبّ جام غضبه على طه حسين، فأعاد طبع كتابه هذا تحت عنوان (في الأدب الجاهلي) بعد تنقيحه وإبعاد ما كان سبباً في إثارة حمية هؤلاء وأولئك ممن تربصوا به وحاولوا تكفيره. فجاء الكتاب هذه المرة وقد انتزع منه طه حسين فقرات ونصوص كانت كافية لإثارة حمية النقاد والمستنصرين للدين والقومية. وليس الدين ولا القومية بحاجة إلى نصرهم ودفاعهم المزعوم.

إنه (في الأدب الجاهلي) الذي بين أيدي الناس اليوم وهو مؤلّف مقسّم إلى سبعة كتب منها:

الكتاب الأول تحت عنوان (الأدب وتاريخه)، وهو كتاب وزعه إلى العناصر الآتية:

1- درس الأدب في مصر.

- 2- سبيل الصلاح.
- 3- الثقافة ودرس الأدب.
- 4- الأدب.
- 5- الصلة بين الأدب وتاريخه.
- 6- الأدب الإنشائي والأدب الوصفي.
- 7- مقاييس التاريخ الأدبي.
- 8- متى يوجد تاريخ الأدب العربي.
- 9- الحرية والأدب.

2. درس الأدب في مصر:

ملخصه أن طه حسين أملى مقدمة لذكرى أبي العلاء كان يودّ نشرها، فلاحظ أن درس الأدب بمصر يخضع لمذهبين:

مذهب القدماء ويمثله منهج الأدب الأزهرى، وهو مذهب اللغويين والنقاد في العراق قديماً والذي يميل إلى الغريب مبتعداً عن النحو والصرف والبلاغة .

مذهب الأوربيين الذي انتهجه المحدثون في مصر وكان ينحو بالأدب منحى النقاد ومؤرخي الأدب. وقد لاحظ أن بين المذهبين² بونا شاسعا ومفارقات عظيمة كما لاحظ أن المذهبين لابد منهما معا، إن أردنا إتقان الأدب والأخذ بالمنهج المنتج.

و قد لاحظ أيضا أن بين المذهبين شرعةً ثلاثة ونمطا مشوّها رديئا كلّهُ شَر. وعلى هذا النحو كان يدرس الأدب في مصر آنئذ في الجامعات والمعاهد، ولم يكن الأزهر بمنأى عن هذا ولا بدعا منه ولا شاذا عنه، بل كان تواقا إلى هذا الأسلوب العقيم شغوبا به. فانحط الأدب وتخلّف، فقد أثقلته الأغلال والقيود، وعجزت العربية بذلك عن التطور فاختلف التوازن بين الرقي العلمي، والسياسي، والاجتماعي لسبب وحيد: هو عجز المدارس عن مواكبة الحركة الفكرية العالمية لقلّة ما بُذل من جهد ومعنى ذلك غياب المدرسة عن اللحاق بالتجديد الفكري الإصلاحي . ولبعد المدارس والمدرّس من لغة لا صلة لها بواقع الناس وعقول المتعلمين التي أحشيت بألفاظ وأفكار لا تمت بصلة إلى حياة المتدريسين.

3. سبيل الإصلاح:

في هذا العنصر من الكتاب الأول تساءل عن الإصلاح وسبيله وحدد أن للإصلاح له سبيلين: أما السبيل الأول³ فالاجتهاد في تحبيب النصوص الأدبية للطلاب وتقريبها إليهم بتبسيطها وحسن اختيارها وإعداد المعلمين والعمل على تكوينهم وفق ما تقتضيه الآداب واللغة العربية، والابتعاد عن مسخ المعارف

وتشويهها بالتلخيص والاختصار على النحو الذي نراه في مؤسساتنا التعليمية. ولا سيما دار العلوم وما شابهها من مدارس ومعاهد مما لا نفع فيه للطلاب والآداب على السواء
وعلينا إن أردنا تحقيق الغاية المثلى من درس الآداب أن نُحيي في طلابنا روح تَعَلُّم اللغات والآداب العالمية ما أمكن لتتبيّن عن صدق تأثير الآداب ببعضها، كما أنه علينا أن نستعين بمناهج البحث العلمي الحديث،
مناهج الفرنسيين والانكليز والألمان وآدابهم.

4. الثقافة ودرس الأدب:

معرفة الثقافة والإحاطة بعناصرها أمر ضروري لدراسة الأدب، حيث إن ثقافة المجتمع عنصر أساس لكل درس أدبي. إن الأدب يتصل بالثقافة اتصالاً وثيقاً، سواء منها ما يمسّ العقل، أو الشعور، أو ما يمسّ حاجاتنا المادية، فلا فن في مجتمع أدبي مغلق⁴.

إن دراسة الأدب تحتاج إلى معرفة عناصر الثقافة دون تحديد، وعلى الأديب أن يأخذ من كل فنّ بطرق، فيقرأ هوميروس، وسوفوكل، وشكسبير، على النحو الذي نراه عند الجاحظ مثلاً. وهو الأديب الذي يوصف بالموسوعة اللغوية والبيانية، والتاريخية، حيث كان هو وأمثاله يحسنون الفلسفة، وحكمة الهنود، ومعارف الفرس. كانوا كتاباً وأدباء. ومن هنا يتبيّن لك أنّ دراسة الأدب ليست بالأمر الهين الميسور.

إنّ على دارس الطبيعة أن يُلِمّ بالمعارف العلمية المتعلقة بالطبيعة والبيئة. وحياة الناس والعكس صحيح أن يكون عالم الطبيعة ملماً بالمعارف اللغوية والأدبية. وإلاّ كان مقصّراً. إن على كل منهما أن يكون على بينة من ضوابط نظيره وقواعد المعرفة عند قسميه، وهنا نتساءل أين أدباؤنا من هذا كله؟ وأين مدارسنا من ذلك كله؟.

5. الأدب:

تعريف الأدب ليس أمراً غريباً أو صعباً بل أمر سهل ميسور. إن الأدب ليس سجعا مسرفاً ولا تحذقا متكلفاً، ولا فلسفة، أو وحياً منزّلاً، فقد اشتق من الأدب بمعنى الدعوة إلى الولايم⁵. وإن رأى نلينو أنه مشتق من الدأب أي العادة فهي مشتقة من الجمع. جمع على (أدأب) ثم قلب إلى أداب كما جمع بئر على أبار. ثم قلب إلى آبار ونحو ذلك.

وهو رأي افتراضي لا نصوص نحتكم إليها في ذلك. فلم يرد اللفظ في الشعر الجاهلي كما لم يرد في القرآن الكريم. وإن وردت في الحديث فليس ذلك حجة قاطعة على استعمال النبي هذا اللفظ.

و المحقق من هذا كله أن لغة قريش سادت بقية اللغات وجاء الأدب فوظفها ولم يهمل اللغات الأخرى التي قاسمتها البيئة العربية. وإن المدون من هذه اللغة بالقياس إلى المهمل قليل وهو أمر قد لا تكون معرفته ميسيرة. والصحيح من كل ذلك أن لفظة أدب تدل على هذا العلم الذي ليس بدين

و لا متصل بالدين مما أنتجه الفكر البشري ونظّمه على هذه اللغة المختارة من لهجات شتى ممثلة في لغة نموذجية هي لغة قريش السائدة آنذاك.

إن النحو ليس أدبا وإن كان لا بد منه للأدب، ورواية اللغة ليس بأدب وإن كان لابد منها للأدب، ورواية الأنساب ليست أدبا وإن كان لابد منها للأدب. إن الأدب ما يؤثر من شعر ونثر وما يتصل بهما من دلالة على مواطن الجمال الفني منذ القرن الثاني (2) للهجرة. إن الأدب هو الشعر والنثر وما يتصل بهما عندنا وعند الأمم الأخرى سواء بسواء.

6. الصلة بين الأدب وتاريخه:

يقر الأديب الناقد طه حسين أن تاريخ الأدب⁶ لم ولن يكون علما مستقلا منفصلا قائما بنفسه. ويضرب المثل بالثورة الفرنسية وتاريخها. وأن كلا منهما له مفهومه وحدوده. والمؤكد فقط أن تاريخ الأدب لا يعرفه ولا يكتبه إلا أديب، لأن تاريخ الأدب لا يعتمد على مناهج البحث العلمي لاضطاراه إلى الذوق أيضا. كاضطراره إلى الملكات الفردية، انه علم يختلف عن علم الطبيعة والرياضيات فهو بحث ذاتي وليس بحثا موضوعيا فهو بذلك وسط بين العلم الخالص والأدب الخالص من موضوعية العلم وذاتية الأدب.

7. الأدب الإنساني والأدب الوصفي:

الأدب أدبان إنساني ووصفي، فالإنساني هو مأثور الكلام من نظم ونثر. إنه قصيدة الشاعر ورسالة الكاتب التي يراد بها الجمال الفني لوصف الشعور والحس إنه ما يصدر عنا كما يصدر التغريد عن الطير. أما الأدب الوصفي فلا يتناول الطبيعة وجمالها. ولا يتناول العاطفة وحرارتها ولا يتناول الفرح والحزن. إنما يتناول الأدب الإنشائي الذي يمثل هذه الأشياء تمثيلا مباشرا يتناوله مفسرا ومحللا ومؤرخا. أوبعبارة أخرى هو نقد الأدب الإنساني. فإذا كان الأدب الإنساني أدبا حقا فالوصفي نقد لهذا الأدب وتحليل وتفسير له، وهو الإجابة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم⁷، وثمره لسان أهله.

إن تاريخ الأدب يتصل بالزمان والمكان والبيئة والجماعة متأثرا بها. ومتطورا بتطورها، متقدم بتقدمها، أو متأخر بذلك ومنحط بسببه. وتاريخ الأدب ليس إنشاء ولا اختراعا. إنما هو تجديد وإصلاح للموروث الأدبي مع تجديد المنهج الإصلاحي مسبقا.

8. مقاييس التأريخ الأدبي:

هنا قسم الموضوع إلى عناصر ثلاث عنصر سياسي وعنصر علمي، وآخر أدبي. تناول في العنصر الأول علاقة الأدب بالسياسة⁸ وأنكر أن تكونا معا على نمط واحد؛ حيث عرض عصورا سياسية ازدهر فيها الأدب وانحطت السياسة أو العكس. ومال إلى أن تقسيم الأدب إلى عصور جاهلي إسلامي، أموي،... تقسيم غير سليم ومنهج كان متبعا ولكنه غير علمي، رفضه وانتقده محبذا الابتعاد عنه لسببين:

1- إن التقسيم يتخذ من الحياة السياسية مقياسا للأدب يرتقي برفيها وينحط بانحطاطها، انه رأي لا ينبغي الإسراف في تبنيه، فالسياسة لا تختلف عن غيرها من المؤثرات تبعث الحياة في الأدب حيناً، وتقبل به إلى الخمول والعجز حيناً آخر.

2- هذه الوجهة- تقسيم الأدب إلى عصور سياسية- غير عميقة بل هي دراسة سطحية قائمة على الكذب والتضليل والخداع، قاصرة، عقيمة، تأخذ الأدب على أنه عصور سياسية وذلك غير سليم وحين عرض العنصر التالي من هذا الموضوع- المقياس العلمي- تحدث عن وجهة نظر الباحثين الغربيين الذين جعلوا من الأدب علما يعتمد فيه الدارس على شخصية الأديب، فيدرسها دراسة نفسية عضوية. فيرتبها كما يرتب عالم النبات الفصائل النباتية المختلفة معتمدا على التشابه بين الشخصيات وآدابها مهما اختلفت الأمزجة، بل راحوا يبحثون عن شخصية الأديب من أين جاء؟ وكيف ابتكر ما جاء به؟ الفرد ما هو؟ أثار الأمة؟ علاقته بالمكان؟ بالزمان؟ ما علاقة الأدب بنظرية النشوء والارتقاء وهل خضع الأدب لهذه النظرية كما خضع له منتجه؟ ما علاقة الأديب وذوقه بتاريخ الأدب؟ إلى أي مدى كان اثر البيئة في الأدب وتاريخه؟ الجنس؟ الدين؟ المنحى الحياتي العام والخاص؟

و في حديثه عن المقياس الأدبي ذكر أثر الذوق الفردي في تاريخ الأدب؟ إن تاريخ الآداب يجب أن يُكتب الإغراق في العلم، الإغراق في الفن. فتاريخ الأدب له علاقة بالعلم والفن⁹ وهما قسمان غير متميزين فالمرور للأدب يعتمد جهات وآراء علمية كما يعتمد آراء فنية لنجد في الذي تقرأ من تاريخ الأدب لذة العقل ولذة الشعور والذوق جميعا.

9. تحليل ونقد الكتاب:

تصفحنا محتوى هذا الجزء من كتاب طه حسين الموسوم (في الأدب الجاهلي) فتبين لنا أن الرجل طاف بخياله في مسرح حياة أبي العلاء المعري، وأدب الناس إلى عهده، وطرق تدريسه على زمانه، ومعارف المدرسين أمثاله لهذا التراث الإنساني(الأدب). وتصور أنه بحكم ثقافته وسعة معارفه وإطلاعه على مناهج الغربيين الاطلاع الذي لم يتح لأمثاله من قبله.

إنه الأديب المتمرس، والباحث المتمعن، والناقد النافذ، والقارئ المقتدر، والموجه الموفق، والمربي المهتدي إلى الصواب والموجه المسؤول عن فكر الناس ونشاطهم الثقافي والأدبي الذي عليه أن يعمل بكل وعي واقتدار على الأخذ بزمام الأدب والآداب إلى شاطئ النجاة، وتبصيرهم بما ينبغي أن يكون عليه أسلوب تدريس الآداب ولغات الآداب وفنون الآداب. إن هنا وإن هناك، إن عاجلا وإن آجلا، إن لم يكن ذلك حالا فانه أمر ينبغي أن يؤول إليه الأمر غدا.

إن الناقد الأديب طه حسين كان يرى من نفسه وصيا شرعيا على الفكر والثقافة والتربية والتعليم في مصر أولا والعالم العربي ثانيا. ومن هنا ذهب إلى أبعد الحدود في عرض الوضع الأدبي المعيشي، وتشخيص الحالة التي يمارس بها الأدب أو يدرس في المعاهد والجامعات، في المدارس والمنتديات، ولأن الرجل كان على بصيرة من الحياة الأدبية في مصر والبيئة العربية راح يشخص الداء ويقترح الدواء. بكشف عيوب المدارس والمدرسين

ويقترح الحلول الكفيلة التي تعمل على النهوض بالأدب والمأدبين وتأخذهم إلى شاطئ النجاة بعد مؤاخذتهم وتبرز لهم الجميل والصحيح بعد أن توقفهم على القبيح والمريض من صنيعهم وصناعتهم.

إن الناقد الأديب والناصح الأمين رتب أفكاره ترتيباً فكرياً صحيحاً وطموحاً (درس الأدب بمصر) (سبيل الإصلاح) (الثقافة ودرس الأدب) وهلم جرا. من حيث الصحة فهو بين لا غبار عليه حيث عرض الموضوع على النحو الذي هو عليه في مصر، وتلك التفاتة ناجحة وموقف سليم وعرض منطقي موفّق، عرض موضوع درس الأدب ثم بحث له عن الإصلاح وطرقه السليمة، فإذا ما تم له ذلك وحصر نقاط الإصلاح وطرقه، التفت إلى أثر الثقافة في الأدب والإصلاح، لحنكته واحتراماً لما يقوم به وتقديراً للقراء عالج الموضوع بموضوعية¹⁰ متعاملاً مع العمل بنوع من التجريد.

و لعمرى أن الرجل كان موفقاً إلى أبعد الحدود فلا أدب بدون ثقافة، ولا ثقافة خارج نطاق الأدب. إنهما وجهان لعملة واحدة؛ الثقافة بشُعَبِها وعناصرها بعاداتها وتقاليدها وأنماط سلوك المنتمين إليها بفلكلورهم وأهازيجهم، وآدابهم الشعبية المختلفة. والأدب بفنونه ومستوياته المعرفية - قصة ورواية، شعر ونثر، حكم وأمثال، نقد وتحليل، عرض وتوجيه.

إن الأديب ينبغي أن يكون كالبائع المتجول (الحضري) في المفهوم الشعبي الموروث الذي ينقل سلعته على ظهر أتان أو حمار يركبه تارة، ويسقه أخرى، كلما مر ببيت نادى على بضائع، وصحب ذلك بعرض غرضه من شراء ما يملكه الناس فقال: خواتم، مناقش أساور، قلائد، آليّ عندك صوف، آليّ عندك طيور آليّ أتبيع البيض. عندي النغرة عندي النيلة عند المسواك، عندي الصابون، عندي الشب، وهكذا دواليك فيبيع ويبتاع. ويبدل سلعة بأخرى. إنه نمط حيّ لما ينبغي أن يكون عليه المثقف العام أولاً، والأديب المتمرس ثانياً، وإلاّ كان الأمر مهزلة لا طائل من ورائها أبداً.

ذلكم ما كان الناقد الأديب طه حسين يريد أن يقرّه ويعمل على تقريره انطلاقاً من محيطه الفكري وثقافة بيئته ومعاهد بلده وجامعات كانت تحت سلطته وهو الأديب، الناقد، الوزير، العميد.....

إن الأديب المثقف كل متكامل يعرف النحو والبلاغة ويحسن توظيفهما، ويقدر على الإشارة إلى مواطن صلاحيتهما، أو إساءة استخدامهما في هذا النص أو ذاك، إنه الأديب اللغوي البياني، المسرحي، السينمائي المالك المقتدر لعناصر وأنماط التعبير بهذه اللغة أو اللغات، ولا يمكن لأحد أن يزعم أن الأدب أمر آخر خارج هذه الملاحظات أو بعيداً عن ذلك؟.

و كم يسوء المرء وهو يسمع في التلفاز أو الملتقيات أناساً يحاولون إقناعنا بانتمائهم إلى هذا الفن أو ذاك من فنون الأدب، فإذا ما تكلموا تلعثموا ولحنوا، فإذا سمح لهم بتقديم ما يزعمون أنه اختصاصهم أبانوا عن جهلهم وعجزهم فيما هم فيه اختصاصيون. هذه صورة من صور الحياة الأدبية التي كان يراها طه حسين في معاهد وجامعات وملتقيات مصر يومئذ.

إنّ علينا أن نقرّ مجبرين أنّ طموح الناقد والأديب طه حسين والغايات التي كان ينشدها تنحصر في أن يرى الأدب في المؤسسات التعليمية العربية بعامة والمصرية بخاصة أفضل حالا، وأحسن وضعاً مما هو عليه يومئذ. أي أن يكون على نحو ما هو عليه في المؤسسات الغربية التي أدرك أصحابها بمناهجهم المختلفة والمتطورة الغاية الصحيحة. والغرض الأسمى والأسلوب الموفق لدراسة الأدب فكان الأدب مستوى معرفي مختلف في مؤسساتهم ونتائجهم الفكري،

إنّ الأدب بقيمه وعناصره هو ذلكم الأدب الذي يدرس عند الغربيين وشتان شتان بين أدب يعني أهله بطرق تدريسه، وأدب يدرسه من يدرسه عندنا من المتخلفين فكرياً، ومنهجياً، المتعصبين لعقائد عمياء ما انزل الله بها من سلطان...

إنّ الناقد الأديب طه حسين عرض الموضوع عرضاً شاملاً في كتابه (في الأدب الجاهلي) فتحدث عن الصلة بين الأدب وتاريخ الأدب وهما عنصران من عناصر الأدب المتوقع، أو الأدب كما ينبغي أن يكون على شرط ألا يدرس أحدهما على حساب الآخر¹¹. فلا تاريخ الأدب وحده أدب، ولا درس الأدب دون تاريخه درساً سليماً...

إنّ الأدب ليس تاريخاً للأدب، ولا حديثاً عن الأدباء، ولا عرضاً مفصلاً لعصور الأدب، بل الأدب كل ذلك، مضافاً إليه إدراك الغاية من النص الذي نقرأه، فنقض الساعات في تدبره واستيعاب ألفاظه، وتبسيط محتواه. ولعل ذلك هو السبب في أحاديث الأربعاء التي كان ينشرها والتي جمعها في كتاب (حديث الأربعاء) وهي الأحاديث التي ذكر من خلالها الصعوبات التي كان يراها دارس الأدب الجاهلي ومعلقاته. انك حين تقرأ حديث الأربعاء وتتمعن تجد الرجل وفيه لمبادئه، مطبقاً للتعاليم التي ذكرها محترماً للنظريات التي سنّها (الأدب كما ينبغي أن يكون من وجهة نظره).

لقد كان طه حسين قامة في العرض والاستقصاء حين عرض ما يتعلق بمقاييس تاريخ الأدب¹² التي وزعها إلى ثلاثة أقسام. مقياس سياسي، وآخر علمي، وثالث اجتماعي، وهل أبقى عنصراً خارج هذه الحدود؟ إنّ الأدب إما سياسي، أو علمي، أو اجتماعي، وليس هناك أدب خارج هذه العناصر حيث إنّ الأدب إما حديث عن البيئة والساسة والبلاط وما شابهه أو حديث عن النظريات المتعلقة بالأدب علم النفس الأدبي، نظريات الأدب، قواعد التعامل الأدبي... ونحو ذلك، أو الأدب حديث عن ذلك كله مضاف إليه تصوير البيئة، وأنماط الحياة (الواقع) وجغرافية المحيط وأدبيات الاتصال والتعامل بين الناس، وبينهم وبين البيئات السياسية والطبيعية وما إلى ذلك. إنّ الأدب الواقعي ممثل في القصص والروايات والمقالات والحكم والأمثال في الشعر والنثر كل ذلك بجزئياته وخصوصياته وعمومياته وعناصره دون تحديد هو الأدب الاجتماعي.

إنّ الحديث عن الأدب وتاريخه في هذا الجزء من كتاب (في الأدب الجاهلي) تنظير للأدب، ووجهة نظر خبير أدبي عايش مدارس أدبية مختلفة عربية وغربية قديمة وحديثة، هو في الواقع خلاصة تجربة أدبية. وبخاصة

وأن المنظر ناقد عالمي عميق المعارف، دقيق المواقف سليم العرض قوي الحجة، راجح الرأي، متميز الأسلوب¹³، يريك من فنه ومعارفه ما يشدك إلى قوله فيسكتك ويرضيك وأن أغضبك وأبعدك في آن واحد. إن فكر طه حسين على الرغم من كثرة النقاد الذين حاولوا جاهدين وضع الرجل في مأزق عقائدي مع علماء الأزهر بخاصة وسكان المعمورة الإسلامية بعامة، فانه كتاب وضع النقاط على الحروف، وشخص واقع الأدب تشخيصاً صحيحاً. وأشار بدقة إلى مواطن الضعف وعناصر السلب والإيجاب في طرق التعامل مع الأدب وتاريخه¹⁴، ولو أتبع المبرمجون والدارسون آراء الرجل واستخلصوا منها بعد استقراء إيجابياتها لكان ذلك نظرية أدبية طموحة ودعوة منهجية غير مرجوحة والحق أن نقدهم ومحاولاتهم لإسقاط الرجل كان مرآة انعكس عليها فكر الرجل ومنهجه فعرفوا به من حيث أرادوا التقليل من شأنه، وشهروه من حيث أرادوا طمس شخصيته ومنهجه وتشويه نقده، ورب ضارة نافعة كما يقولون...

وهنا ينبغي أن نتساءل: هل كان رأي طه حسين كله خير؟ أو بمعنى آخر هل كان في رأي طه حسين سلبيات؟ أم كان كله إيجابيات؟ وهل توجد برأيه ثغرات تحتاج إلى سد؟ جاء في حديثه عن الأدب وتاريخ الأدب تساؤله الآتي: فهل تزعم أنك تستطيع أن تفهم همزية أبي نواس:

دع عنك لومي فان اللوم إغراء

دون أن تعرف النظام خاصة، والمعتزلة بعامة، وما كان لهم من مذهب وقوة أيام أبي نواس؟ وكيف تستطيع أن تفهم قوله

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة
حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
إذا لم تعرف أنه يريد النظام؟

الحقيقة أن طه حسين هنا كان إيجابياً إلى حد كبير، فالنظام احد شيوخ المعتزلة القائلين إن صاحب الكبيرة مخلد في النار وشارب الخمر مرتكب للكبيرة، فهو مخلد في النار وأبو نواس من شاربي الخمر فالقياس يقتضي أن يكون من المخلدين في النار. والخطاب في (دع عنك لومي) خطاب للنظام بوصفه شيخاً من شيوخ المعتزلة وفيلسوفهم المثالي. وعلى الرغم من ذلك فانه مجرد مدّع، ولا شك أن قضايا فلسفية وعلمية قد غابت عنه فجعلها أو تجاهلها.

إن طه حسين هنا يريد أن يؤكد أن دراسة الأدب وتاريخ الأدب لا تكون دراسة منغلقة على الأدب فحسب، بل ينبغي أن تمتد إلى صلة الأدب بقضايا وفكر وعقيدة الأديب وبيئته الدينية، والسياسية، وانتمائه الاقتصادي والاجتماعي، والمذهبي وهو أمر كان الناقد الأديب فيه على جانب كبير من الصدق وسلامة التخرج. إنه نموذج إيجابي، نافع، ودعوة إلى إصلاحية أدبية صحيحة في تنظير طه حسين وانتمائه النقدي والأدبي.

إن طه حسين كان على جانب كبير من الصواب، وليس لنا اليوم من رأي مخالف لرأيه، ولا وجهة نظر مباينة لوجهة نظره، فالأدب كل متكامل، يدرس شخصية الشاعر والروائي وعقيدته، ومذهبيته، وتأثيره وتأثره، لغته وفلسفته في الحياة، لباسه وهندامه، حياته الشخصية والعامة، وأساليب تعايشه وعلاقته بمحيطه الطبيعي والبشري، تعامله مع هذه الحياة أو تلك، تصوره وأتماط تعبيره، ونوع الألفاظ والجملة التي يعبر بها عن خلجات عقله، وشطحات خياله وعلى الناقد والدارس المحلل ومعيد الصياغة أن يعي ذلك ويتنبه له في عرض أنماط الأدب شعره ونثره لهذا الشاعر الحديث وأذلك الأديب القديم.

ذلكم أن دراسة مآثور الكلام نظما ونثرا نستمد عناصر شرحها، وتوضيح غاياتها من تلك العناصر كلها دون إهمال أو تفريط وهو أمر ايجابي في حديث طه حسين في هذا الجزء¹⁵ من كتابه (في الأدب الجاهلي). بغض النظر عن عقيدته ودينه ونظرته إلى الإيمان والقرآن، فنحن نقرأ للكاتب الروسي مكسيم غوركي، ونقرأ للأديب والمفكر الفرنسي جان جاك روسو، ونقرأ للأديب الانكليزي شكسبير ومواطنه فيرث.

فهل نعيننا عقيدتهم في شيء؟ وهل حال بيننا وبين قراءتهم مذاهبهم واتجاهاتهم، بل نحن نقرأ للأدباء والمفكرين الإيديولوجيين: دور كايم، كارل ماركس، فريد، اينشتاين، دون حرج أو حذر فلم لا نقرأ لهذا الأديب النابغة الماجد، والمفكر السليم الناقد . و لن نعدم الفائدة إن شاء الله.

إن الأديب والناقد والمنظر طه حسين ربط بين الأدب والواقع واستفاد من صورة الأدب في ذلك الواقع¹⁶ قبل وأثناء وجوده قبل أن يكون أدينا على نحو درس وسمع، وحين أصبح أديبا متذوقا، وناقدا مولعا بالنقد ومحلا مقتدرا، يعرض الأدب وقضاياها عرضا فنيا يشدك إلى جزئياته شدا عنيفا فلا تملك لنفسك القدرة على التخلص من ألفاظه أو التملص من تحليلاته، أو الإفلات من تنظيره، انه يحاورك وكأنه يراك أمام فاعرا فاك، مصغيا كل الإصغاء؛ طف معه إن شئت من عرضه للصلة بين الأدب وتاريخه وسمع وهو يقول: وافهم حق الفهم أن الحركة البر وتستننيه شيء، وتاريخها شيء آخر، ليقنعك أن الأدب أمر وتاريخه أمر آخر فتاريخ الأدب أدب يتأثر بما يتأثر به مآثور الكلام من الذوق انه وسط بين العلم الخالص والأدب الخالص.

أذهب معه إلى جزئية أخرى إلى عرضه لما أسماه الأدب الإنشائي والأدب الوصفي¹⁷ فقد كان تعليله قمة في الإقناع، وعلو في التبرير والتحليل . إن الأدب الإنشائي عنده قصيدة أو رسالة (أثر) يسعى صاحبه إلى الجمال الفني من وصف شعور أو رسم خاطر أو الإبانة عن العذوبة والدقة.

أما الأدب الوصفي فشرح لكل الأحاسيس وتحليلها والتأريخ لها ونقدها وحصر عناصر القبول فيها وغماذج الرفض التي ترد منها ولا تقبل . إنه غربة حقيقية لذلك الأدب الإنشائي بغربال حسي دقيق يمسك الجيد ويسقط الرديء .

الهوامش:

- 1- نجوى بناني، أشهر الردود على كتاب "في الشعر الجاهلي" لطف حسين، دراسة نقدية تحليلية، جامعة أم القرى، 1426هـ. 2005م، ص142.
- 2- طه حسين، في الأدب الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط4، ص7.
- 3- طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص14.
- 4- تشارلس مورجان، دراسات في الأدب والثقافة- الكاتب وعالمه، تر: شكري عياد، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص17.
- 5- ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير، محمد حسب الله، هاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة ص70.
- 6- طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص24.
- 7- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، 2001، ج1، ص763.
- 8- طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص41.
- 9- طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص54.
- 10- هاني الحجي، جدلية العلاقة بين الناقد والأديب، مجلة العربية، مارس 2025، العدد 582.
- 11- طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص37 وما بعدها.
- 12- -- طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص41 وما بعدها.
- 13- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، القاهرة، 1961م، ص284، 285.
- 14- عبد الملك، المنهج الدراسي لاختبار أهلية منصب المحاضر في الجامعة الهندية، مركز الدراسات العربية والأفريقية، جامعة جواهرلال نهرو نيو دلهي، غير مطبوع، ص42.
- 15- طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص67 وما بعدها.
- 16- ينظر: رولان بارت وآخرون، الأدب والواقع، تر: عبد الجليل الأزدي ومحمد معتصم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2003، ص5 وما بعدها.
- 17- طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص37-38.

المصادر والمراجع:

- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، 2001، ج1.
- تشارلس مورجان، دراسات في الأدب والثقافة- الكاتب وعالمه، تر: شكري عياد، المجلس الأعلى للثقافة، 2000.
- ينظر: رولان بارت وآخرون، الأدب والواقع، تر: عبد الجليل الأزدي ومحمد معتصم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2003.
- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، القاهرة، 1961م.
- طه حسين، في الأدب الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط4.

- عبد الملك، المنهج الدراسي لاختبار أهلية منصب المحاضر في الجامعة الهندية، مركز الدراسات العربية والأفريقية، جامعة جواهرلال نهرو نيو دلهي، غير مطبوع.
- نجوى بناني، أشهر الردود على كتاب "في الشعر الجاهلي" لطله حسين، دراسة نقدية تحليلية، جامعة أم القرى، 1426هـ 2005م .
- ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير، محمد حسب الله، هاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة .
- هاني الحجري، جدلية العلاقة بين الناقد والأديب، مجلة العربية، مارس 2025، العدد 582.